الإفادة

في

رحمة الرحيم الرحمن

في

تنويع أمور العبادة

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم –رحمني الله وإياك– أن الله –عز وجل– قد وصف نفسه بأنه فعال لما يريد وأنه يفعل ما يشاء، وأنه —سبحانه– كل يوم هو في شأن فالفعل لم يزل الرب موصوفًا به، ولا يزال –سبحانه– فعالاً لما يريد، ومن عطله عن الفعل فهو معطل، وقد أحسن ابن القيم –رحمه الله– حين قال المعطل يعبد عدمًا وإذا كان الإنسان موصوفًا بالفعل، ويعتبر وصفه بذلك كمالاً، فإن واهب الكمال –وهو الله سبحانه– أولى بهذا الكمال من عبده ومخلوقه.

وإنَّ وَصْفَ الله –عز وجل– بالفعل يدل على أن الله –عز وجل– موجود، أي: واجب الوجود بذاته، وأنه –سبحانه– حي وقادر إلى غير ذلك من الأسماء المتضمنة للصفات أو الصفات التي اشتقت منها أسماؤه.

فالله –عز وجل– يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويُسعد ويُشقي، ويَهدي ويُضل، ويُنَعِّم ويعذب، فيُسعد من كتب له السعادة، ويُشقي من كتب له الشقاوة، ويَهْدي من كتب له الهداية، ويُضل من كتب عليه الضلالة، ويُنَعِّم في الدنيا والآخرة من أطاعه، ويعذب في الدنيا والآخرة من عصاه، وليس الله –عز وجل– موصوفًا بالإحياء دون الإماتة أو العكس، ولا موصوفًا بالهداية دون الإضلال أو العكس، وهكذا ، فخلقه للكافر وللحيات والعقارب، والليل وغير ذلك هو من كمال فعله –سبحانه– ولا شك في أن الله –عز وجل– حكيم في أفعاله كلها، وأنه لا يَخْرج شيء من أفعاله –سبحانه– عن الحكمة .

ودوام الفعل للرب –سبحانه أزلاً وأبدًا– هو اعتقاد أهل السنة والجماعة، ومما امتن الله به على عباده كونه فعالاً، قال –تعالى– في سورة الرحمن: {يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)}؟!

أقول: ما بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد، ومن هذا أن الله –عز وجل– ينصر هذا، ويخذل ذاك، فينصر من نصر دينه، ويخذل من خذل دينه، وينصر المؤمنين ويخذل الكافرين، وينصر أهل السنة ويخذل أهل البدعة.

فالله –عز وجل– ينصر أولياءه ، ويخذل أعداءه فما من مؤمن إلا وهو منصور، وما من كافر إلا وهو مهزوم مخذول، وما من سني إلا وهو منصور، وما من مبتدع إلا وهو مهزوم مرذول، وله –سبحانه– في نصره أولياءه ما يشاء مما يجعل لهم به النصر، وله –سبحانه– في هزيمة وخذلان أعدائه ما يشاء مما يجعل لهم به الهزيمة والخذلان.

فالمؤمن منصور أبدًا، والكافر مخذول أبدًا.

والخلاصة أن أفعال الله كثيرة لا تحصى ولا تعد فليس كل فعله هو الإحياء فحسب، وليس كل فعله هو الإماتة فحسب، وليس كل فعله هو الخلق فحسب، وليس كل فعله هو الرزق فحسب فأفعاله –سبحانه– كثيرة متنوعة بلا حصر منا ولا عد.

وإذا تأملت في أفعال الإنسان المخلوق وجدتها متنوعة، فما بالك بأفعال الرب الخالق –سبحانه– الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا؟!

وإن تنوع أفعال العبد من ذكر وصلاة وقراءة قرآن ودعاء وزكاة وحج وجهاد وغير ذلك لمن رحمة الله -سبحانه- بالعبد ، فالله -عز وجل- أعلم بعبده وبما يصلحه قال -تعالى-: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)} فشرع الله الشرائع ونَوَّعها، ولم يقصرها على نوع واحد يتعبد به العبد لربه طول دهره، فإن ذلك لا ينجو صاحبه من السآمة والملل أولا يكاد ينجو من ذلك.

ولذا تجد أن العبد إذا انتقل من نوع من أنواع العبادة إلى غيره، انتقل نشيطًا، فتراه ينتقل في العبادة الواحدة كالصلاة -مثلاً- من تكبير إلى دعاء إلى قراءة إلى تكبير إلى تسبيح إلى دعاء إلى تسبيح إلى دعاء، وهكذا ينتقل بفعله من قيام إلى ركوع إلى قيام إلى سجود إلى جلوس وهكذا، وينتقل من الصلاة بعد التحلل منها بالتسليم إلى الاستغفار والدعاء والذكر من تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل إلى غير ذلك فيجد العبد من نفسه بهذا التنويع من النشاط مالا يجده من نفسه لو كان مقصورًا على نوع واحد من العبادة فالحمد لله اللطيف الخبير.

ومن هذا التنويع تنويع وسائل الدعوة إلى الله -سبحانه- فتارة بالقول، وتارة بالفعل، والقول يكون بصوت خفيض تارة وبصوت رفيع تارة أخرى، وتارة يكون مع الرفق واللين، وتارة يكون جدالاً شديدًا بل جلادًا، وقد قال -تعالى-: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)} والذي قال هذا -وهو الله -عز وجل- هو الذي قال: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} وليس المقصود ها هنا تتبع واستقصاء أنواع العبادة أو استقصاء أفراد تلك الأنواع فإن هذا ليس بالإمكان، وإنما المقصود ها هنا الإشارة إلى ذلك.

وإذا كان هذا الشأن في أفعال العبد -فما الظن بالتنوع في أفعال الرب؟! وقد قيل من عرف نفسه عرف ربه أي من عرفها بالضعف والعجز عرف ربه بالقوة والقدرة، ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، ومن عرف نفسه بالظلم عرف ربه بالعدل، وإذا عرف نفسه بالإساءة عرف ربه بالإحسان، وإذا عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى وإذا عرف نفسه بأن له أفعالاً متنوعة عرف ربه بكثرة الأفعال التي يحمد عليها، والتي لا تحصى ولا تعد، فالعبد عبد، والرب رب.

ومن تنوع أفعال العبد دعوته إلى الله بالتأليف والتصنيف والكتابة المختصرة تارة والمتوسطة تارة أخرى، والمطولة والمبسوطة والمسهبة تارة ثالثة.

ومن رحمة الله بالعبد أنه لم يكلفه بالكتابة فحسب في الدعوة إلى الله -سبحانه-، فإن أحدنا لا يُنْهي أو لا يكاد يُنْهي الكتابة في أمر واحد إلا ويصيبه الملل أو يكاد أن يصيبه الملل!!

أليس من رحمة الله بالعبد إذًا أن ينوع له وسائل الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- ويشْرَع له ذلك، فلم يقْصره على الكتابة فحسب؟!

على أن العبد مهما قال أو كتب فإنه لا يدري في أي كلامه المسموع أو المقروء البركة.

فالمؤمن يعلم أن النصر من عند الله لا بكثرة الكتابة، ثم إن العبد لو كان مقصورًا على الكتابة المقروءة أو النطق المسموع لقلنا: إن الله نَوَّع لعبده في ذلك كله.

فالكلام المكتوب المقروء أو المنطوق الملفوظ المسموع فيه الأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والتهديد، والتحدي، والتعجيز، والتخيير، والإلزام، والإخبار إلى غير ذلك من أنواع الكلام .

فليس الكلام كله على وتيرة واحدة فليس كله أمرًا دائمًا وأبدًا ، وليس كله نهيًا دائمًا وأبدًا، وليس كله ترغيبًا دائمًا وأبدًا، وليس كله ترهيبًا دائمًا وأبدًا وهكذا.

وبناءً على ذلك تجد أن الدعوة الحقة هي التي تحذو حذو الكتاب والسنة في كل شيء ثبت فيهما، ولا يعرف ذلك إلا للدعوة السلفية، فهذا التنوع تجده أحسن ما يكون في تلك الدعوة، ذلك؛ لأن لكل مقام مقالاً، وأنَّ لكل شيء قدرًا، ولا أحد أبصر بالكلام وأنواعه ومواقعه وقدره من السلفيين الذين يترسمون خطى سلفهم الصالح السائرين على سبيل الكتاب والسنة اللذين فيهما من التنوع المشار إليه وأمثاله ما فيهما.

فالسلفيون يدعون إلى توحيد الله وإلى عبادته بشتى ومختلف أنواع العبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج وصلة وبر وأمر بمعروف ونهي عن منكر وغير ذلك، ويجمعون بين الأمور متى أمكن الجمع، فدعوتهم حية ومرغوبة لمن عرف حقيقتها وذاق طعمها ولذتها –والمحروم من حرم من ذلك كله– ورحم الله شيخنا الوادعي الذي قال ما ملخصه: الدعوة تحتاج إلى تحريك.

قال ذلك في غضون ذكره لما جرى له من ثورة الشيعة أو الرافضة أصحاب جامع الهادي المقبور بصعدة ببلاد اليمن لما قام فيهم الشيخ مقامًا لا يرتضونه، فقال الشيخ لنا هذا كلام في غضون ذكره لهذه القصة أو على إثر ذكرها.

ولا يخفى على اللبيب أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرد على أهل الأهواء من أعظم ما تحيا به السنن وتموت به البدع، ويحيا به مذهب السلف الصالح، ويقوى به، ويظهر به أتباعه ويوقعون بخصوم هذا المنهج السلفي بسببه أعظم نكاية.

فلا يزهدنك أيها السلفي أحد فيما فيه حياتك وحياة مذهبك السلفي القويم الذي به قوامك، والذي لولاه لكنت معدودًا في زمرة الأموات وما سطرته هنا ما هو إلا إشارة لما هنالك مما وراء ذلك، وفقني الله وإياك ، وسدد على طريق الحق خطاي وخطاك.

والحمد لله الذي سواني وسواك، وأرشدنا وإياك إلى طريق السلف ومنهجهم والذب عن طريقهم وعنهم.

ومن الجدير بالذكر لما يجدد أمر الدعوة إلى الله وينشطها التنويع في العبارة في صد ورد ونقد أنواع الباطل والضلال والبدع التي استشرت في الناس، والتصدي لما يستعظم كثير من الناس التصدي له من ذلك حتى تحيا الدعوة السنية السلفية المرْضية، وتموت البدع المرْدية الرَّديَّة فمن ذلك وجوب إنكار الحزبية والعصبية المذهبية والفرق البدعية ، والطرق الصوفية، والاحتفالات الشيطانية بالموالد البدعية، وإنكار الشرك ووسائله وذرائعه الجلية والخفية، ومن ذلك الدعوة إلى توحيد رب البرية، وتطهير باب العبودية من أدران البدع الشركية، ومن ذلك إنكار القبور المشرفة، والقباب البدعية، ولو كانت القبة المبنية على قبر خاتم النبيين محمد –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– ومن ذلك الإنكار على علماء السوء من هذه الملة المحمدية الذين هم أشباه أحبار ورهبان الملة اليهودية والنصرانية.

ومن ذلك الإنكار على العامة الذين ركنوا إلى رسوم وشعارات وتقاليد جاهلية، والدندنة حول وجوب اتباع الطريقة السلفية، ووجوب مجانبة ما عليه الآباء من المخالفات والسبل الغوية إلى غير ذلك مما شاع وذاع في بلاد الإسلام أو في كثير منها من البدع والمعاصي التي هي سبب للنكبات والمصائب، عافاني الله وإياك من كل بلية وختم لي ولك بخاتمة السعادة الأبدية .

وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليمًا.

تم تحريره في ليلة الأربعاء الموافق السادس عشر من شهر ذي القعدة لسنة ثلاثين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام[1].

وكتب

أبو بكر بن ماهر بن عطية بن جمعة المصري

أبو عبد الله

مصر – المنصورة – طلخا – جوجر

١– تم التعديل بتاريخ السادس عشر من رمضان لسنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة النبوية